أبو جعفر المنصور والحاكم بأمر الله

وجوه الإتفاق والاختلاف بينهما

للدكتور محمود شرف الدين

أولا ـ ملامح مختصرة لشخصية الخليفة العباسي :

هو أبو جعفر عبد الله بن على العباس ولد سنة ١٠١ هـ بالحميمة من أرض السراه على قربة من العقبة ، وأمه سلامة البربرية ، وتربى وسط الاعلام العلماء من جلة بنى هاشم وقد صحب والده وحده في فترتى ادعوة العباسية السرية والعلنية وكانا يتمتعان بقوة الحجة والقدرة الفائقة على الاقناع فنشأ متأثرا بهما ، فغدى فصيحا بليغا أديبا ملما بسير الملوك والامراء ،

وقد عاون أبو جعفر أخاه السفاح في القضاء على أبى مسلمة الخلال ـ أول وزير في الاسلام ـ والذى أراد تحويل الخلافة الى بنى علوى ، كما عاونه في القضاء على قواد بنى أمية وهو الذى أخذ البيعة لاخيه أبى العباس سنة ١٣٢ هـ وقد ولاه السفاح في السنة نفسها أعمال الجزيرة وأذربيجان وأرمينية كما ولاه سنة ١٣٦ أمارة الحجج ،

وعندما تولى المنصور الخلافة بعد أخيه السفاح أصل بعض المبادىء العامة وضبط اعمال دولته العباسية وابتكر أشياء تنسب

اليه أمرها بناء مدينة بغداد وتحصين الحدود التى بينه وبين الروم البيزنط وأشرف على أعمال الدولة بنفسه واستعرض الجند وتفقد أحوال الحصون وجدد ما تشعث منها وكان يجرى العمارة الدائمة عليها كما كان من عادته مراجعة الدخل المنصرف من موارد الدولة التى جعلها من أغنى الدول واتساعها في الملك ٠

وكان المنصور أسمر رقيق السمرة نحيفا طويلا معرق الوجه خفيف العارضين ٠ تخالطه أبهة الملوك بزى النساك فتقبله القلوب ٠ وخطه الشيب في سن مبكرة لطول ما عرك من الاحداث ٠ وكان حازم الرأى لم ير في لهو قط ولا شيء يشبه اللهو ٠ رابط الجأش يقابل الاحداث بعزيمة ليس فيها خور ولا تخاذل ٠

وكان المنصور من أحرص الخلفاء على تطبيق العدل وتنظيم ساحة القضاء فاهتم باختيار القضاء العدول للمدن الكبرى وكان يتحرى عنهم قبل تعيينهم عن طريق استيفاء أخبارهم وتعرف أحوالهم ولا غرابة أن يتفرس الخبير بالرجال وقد عجمته الاحداث كل صغيرة وكبيرة تبرز له معالم ومعادن الرجال خاصة من يعمل ببلاطه وهو القائل « ما أحوجنى أن يكون على بابى أربعة نفر لا يكون على بابى أعف منهم قيل له يا أمير المؤمنين من هم ؟ قال هم أركان الملك ولا يصلح الملك الا بهم ٠

أما أحدهم فقاضي لا تأخذه في الله لومة لائم والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القهر والثالث صاحب خراج لا يظلم ولا ينقص الرعية فالتى عن ظلمها غنى والرابع ثم عض على أصبعه السبابة ثلاث مرات يقول في كل مرة آه ٠ قيل له ومن هو يا أمير المؤمنين ؟

قال صاحب البريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة (١) ٠

---

(١) المسعودى التنبيه والاشراف ص ٢٦ ٠

وقد توفي المنصور سنة ١٥٨ هـ وتولى الخلافة من بعده ابنه الاكبر المهدى ٠

لمحات موجزة من تاريخ الخليفة الفاطمى :

هو أبو على ـ الحكم بأمر الله ـ ابن الخليفة العزيز بالله بن المعز لدين الله ولد بالقاهرة لسبع بقين من شهر ربيع الاول من سنة ٣٧٥ هـ وأمه السيدة العزيزية المسلمة الحرة ٠ وقد ورث عن والده الذكاء وحب العلم والعلماء والظهور بمظهر العظماء كما ورث قوة التكوين : أما عن نشأته الاولى داخل القصر الفاطمى فقد كان الحاكم يعيش عيشة القصور الباذخة ولكن مع الاستمساك بروح الدين ومبادئه القويمة ولم يترك له الزمن فرصة الانغماس في مجالس اللهو والعبث التى يعرف فيها كل من كان في سنه وفي ظروفه وكان الحاكم بحكم نزعة صوفية فلسفية ذلك أنه يرى في التقشف، والبساطة مثله وقدوته فيحتقر متع الحياة وكان أميل الى النقاء في حياته الخاصة فابتعد عن الترف الذى يفت في الاجساد والارواح القوية ٠ وقد أخذ بقسط وافر من علوم الدين واللغة من علماء عصره البارزين الذين لازمهم داخل القصر ٠ فضلا عن تتبعه لما أغرم به من علوم الكيمياء والنجوم والارصاد وسائر علوم الرياضيات حتى حصل على قدر كبير منها ٠ ولم يزل الحاكم على ذلك من صغره يشتغل بالآداب والنظر في دقائق العلوم حتى أتته أمر الخلافة وهو ابن احدى عشر سنة حين حضرت الوفاة والده العزيز فأوصي بأمره خادمه المسمى برجوان في شعبان سنة ٣٨٣ هـ ٠ وقد حاول الحاكم عندما نضج التخلص من وصية برجوان هذا بعد أن استبد بالامر دون الخليفة وخشي الحاكم استفحال خطره على الخلافة الفاطمية فعجه به ٠

وكان الخليفة الفاطمى صاحب شخصية قوية مؤثرة وقد دعم هذا ما أشاعه في نفوس رعيته من خوف وهلع بعد سلسلة متناهية في الضبط والنظام • فكان مظهره مخيفا يدخل الهول في النفـــوس عند رؤيته • ولا يكاد الانسان يقف عندما يفحم في مخاطبته بل كان لا يلبث أن يسقط على الارض مع انه كان يعتمد بقاءه (١) •

وكان الحاكم من أجرأ الخلفاء الفاطميين وأقواهم شـــكيمة وأشدهم مراسا • وقد تميز بالثبات والشجاعة • فكان يدعـــو الناس الى الجهاد • فوق أنه الوحيد من خلفاء القصر الذى كان يسير وحده دون حرس أو حاشية متعمقا في الجبال ويجوب المفاوز ويغشي الاسواق ليعالج المشاكل ويقف على أحوال الدولة بنفسه فكان على الجملة عمرى المنهج والسلوك فمن كمال صفات الحاكم الزهد في أموال الرعية على الرغم مما تكدس في خـــزائن دولته من الاموال والتحف • وبلغ من تعففه أنه كان اذا كثرت أملاك أحـــد رجاله أضافها الى ديوان المفرد السابع للدولة•وكانيؤثر مظاهر التواضع والبساطة حرصا على مال الدولة فنهى عن اتخاذ الصـور الخادعة المتبعة في دولة آبائه وهى بالقطع مرهقة لميـــزانية الدولة دون عوائد ترجى من ورائها فمنع من ضرب الطبول والابواق حول القصر وترك ركوب العمايات والخيـل والبغـال المسـومة • وترك معظم الخلفاء الفاطميين • وكان يدفعـــه الى ذلك شغف حقيقى الى البســاطة • وكان يرتدى ملابس متواضعة أو يلبس دراعة صوف ويتعمم بفوطه وفي رجله حذاء عربى مسامج •

كما قام الحاكم بالكثير من الاصلاحات التى عادت فوائدها المؤكدة وخيرها الفائض ونتائجها الباهرة على الشعب المصرى •

---

(١) يحيى بن سعيد التاريخ المجموع ص ٧٠ •

حيث قضي على الفتن وحارب العابثين وأغلق أماكن اللهو والعبث وطارد السارقين والمارقين • كما ظهر القضاء ونفى ساحة العدالة مما شابها من انحراف وتجاوزات • كما امتدت أياديه البيضـــاء على مجالات العلم والعمران حيث شيد العمائر المدنية والدينيـــة مثل جامع راشده والمقس والانور ودار الحكمة والقصور والمناظر والاقبية كما أنشأ حى الحسينية لرعيته • كمـــا أعـد المســـاجد بمكتبـــات كانت تزخـــر بالقيم النفيس به المخطـوطات والكتب كما شملت الاصلاحات الرقى الصناعى والتجارى • كما ضـــرب الدراهم والدنانير باسمه • وقد نسبت اليه أعمـــالا غريبة كانت السبب المباشر في القضاء عليه وقتله بصورة غامضة سنة ٤١٣ هـ مثل تحريمه لاكل السمك الدلنيس والملوخية وبيع العنب وأمر بقتل الكلاب والقطط السوداء وأراق جرار العسل في النيل • وكانت ولايته خمسا وعشرين سنة • ولم تزل جثته مختفية الى الآن •

ثانيا ـ الموازنة بين الخليفتين العباسي والفاطمى :

على الرغم من أن العصر غير العصر والدولة غير الدولة • وأن الزمان الذى عاش فيه كلا الزعيمين الفاطمى والعباسي مختلف • وعلى الرغم من مخالفة النظام والمذهب وذلك في القرنين الثانى والرابع الهجريين • أجد كثيرا من أوجه الاتفـــاق بين الرجلين في أسلوب الحكم والسياسة والميول والتعامل مع الرعية • وقد ساعد على ذلك ما تمتع به كلاهما من الذكاء وقوة الحيلة وبسط السلطان وقوة الشخصية • والشيء الجدير بالالتفات انك اذا نزعت بعضا من صفحات تاريخهما وأبدلت بهما عوامل الزمن وتغير الاشخاص• دون أن تضع اسم المترجم له لوقع في نفسك الالتبـــاس لفـــرط التشابه بينهما • وللتدليل على ذلك أسوق هذا المقال عن أحدهما

فقد حرص المنصور على السير في سياسة التوازن حرصا شديدا وغالى بالشدة والقسوة على من تصدى لهما أو حاول تغييرها والعبث بطابعها سواء أكان وزيرا أو أميرا • حتى رجال الدين لم يتساهل معهم • فقد كان من أكثر الخلفاء حبا للنظام فقام بتنظيم دولته وعمل على تركيز الادارة فيها وطرق الجباية في الاموال ووجوه صرفها وتوطيد أسس القضاء وتوسيع المجال العمرانى وتغذية الحركة الفكرية ورفع المستوى الاجتماعى ولا ننسي أن عهده كان مقدمة حياة جديدة تمت فصولها بعده ونقطة انطلاق طال مداها وسار على نهجها أخلاف له فأحسن بعضهم التصرف وأساء البعض الآخر فقصر ؟ (١) فلو لم نقل أن السطور تقصد الخليفة المنصور لظننا أنه الحاكم لان هذا الخليفة مشهور عنه أنه :

١ ـ عمل على تركيز الادارة في القاهرة في ايدى مهرة من ارباب الوظائف فكان يراقب الاعمال ويحاسب المخطىء فانتظمت الحياة الادارية •

٢ ـ وأسس قواعد القضاء على كيان متين من العدالة وطهر ساحة العدل من المرتشين والمتحرفين وأخذ الذين لا يحترمون مهام منصبهم الجليل •

٣ ـ وقر رفع الحاكم المستوى الاجتماعى بما سنه من قوانين عاية في الضبط والرعاية بما كفله من حماية المواطن من يد العابثين من اللصوص وشاربى الخمر •

٤ ـ وقد توسع في المجال العمرانى بما قام به من مشاريع حيوية أفادت الدولة •

---

(١) داهية العرب عبد الجبار الجومرد ص ٣١٩ •

٥ ـ وقد اتخذ الحاكم ـ وكذا المنصور ـ طريق الشدة لكل من يتصدى لسياسته بأساليب غاية في القسوة ؟

أخلاق السياسة :

وقد ظلم الحاكم والمنصور من أقلام كثيرة فقد رمى المنصور بتهم هو برىء منها كما أفرط النقاد في الهجاء للحاكم • متناسين أن الرجلين سياسيان يقومان بتدبير أمر رعية تختلف ظروف المعايش في دولتيهما وأخلاق الناس قد تبودلت عما هو الحال عند الرعايا الاوائل في عصر الخلفاء الراشدين • فلماذا يطالب المنصور والحاكم أن يكونا على نفس الطباع والتصرف السياسي الذى كان يتحلى به الصحابة ولم يطلب رعايا في مثالية شعب الاسلام الاوائل في الطاعة وتوحيد الكلمة • وقد امتزجت في أركان الدولتين العباسية والفاطمية العناصر المتعددة التى كانت تميل الى الشغب والافراط في القلاقل • وما كانت تحدثه الفتنة العنصرية بين تلك الطوائف نتيجة التنازع على المناصب والرواتب • فضلا عما هب على المجتمعات العربية من قيم فاسدة وروح العصيان والقتل واشاعة الفوضي الاجتماعية والخروج على الآداب العامة • فما كان السبيل الانفذ في تلك الظروف الا استعمال السيف ليعرف كل واحد طريق الحق والصواب في أحوال تستدعى العلاج الحاسم !

مسألة ولاية العهد :

وهناك تشابه بين الحاكم والمنصور ـ من وجه ـ في شأن ولاية العهد • ففى عهد المنصور كان هناك صراع على ولاية العهد بينه وبين ابن أخيه عيسي بن موسي « عقب مضي مدة لا تقل عن عشر سنين » ولم يكن للجفاء الشديد والوحشة بينهما أثر ظاهر

خلال هذه المدة ذلك لكثرة الفتوق واللهجات على الدولة فيها وهى فتوق وهيجات استغرق وقتها معظم أوقات المنصور اذ كان شغوفا بابنه المهدى من أجل ذلك قام وقعد واجتهد ترضية له وهى سياسة لا مناص معها والاختلاف بين القيل والقال ! (١)

والمعروف أن الحاكم ـ كما بينا ـ غير من نظام البيعة المعتاد في الاسرة الفاطمية فأراد أن يشذ عن هذه القاعدة الراسخة فولى الامارة بالفعل لابن عمه عبد الرحيم بن الياس وقد خلف بذلك صراعا مريرا بين ابن العم هذا وابنه الظاهر الذى نجح بمعاونة عمته سيدة الملك من أبعاده والاطاحة بهذه المحاولة • ووجه الاختلاف في هذا الامر بين الزعيمين ان ولى العهد الحقيقى عند المنصور هو الذى يطلب بحقه الوراثى في البيعة له على يد عمه الخليفة وهو يريدها مبسوطة في يد ابنه لتبقى في نسله وفي حالة الحاكم فان الخليفة هو الذى أبعد ابنه الوريث الشرعى عن هذه الولاية وأعطاها لمن يطلبها • ووجه الاتفاق في أن هناك صراع مشتد بين أشخاص على الوراثة الشرعية في مبادىء الحكم في المصرين نتيجة اختلاف الميول والاهواء !

حب العلم وتقريب العلماء :

وكان الحاكم محبا للعلم عاملا على تقريب العلماء واستقدامهم من الاماكن البعيدة ويستعمل لهم سبل الاقامة وقد بث روح الحب عن طريق انشاء معهد علمى ممتاز سماه دار الحكمة وقد انتهج في ذلك نهج العباسيين في بغداد وكانت عنايته بأمور التربية

---

(١) مؤرخ العراق ابن القوطى ج ١ محمد الشيبنى ص ١٣٥ •

ورعايته للمعرفة تصدر عن رغبة أصـــيلة في نشر الدعـــوة التبعـــة (١) ٠

واذا كانت القـــاهرة الحاكمة قد قامت بهذا الدور البارز في نهضة العلم فان المنصور أدى نفس الدور في خدمة الدولةالعباسية والرقى بالعلم حتى أصبحت المدن العباسية عامرة زاخرة بالمدنية والعلم وكانت الخطوات تدعو الى التفاؤل فقـــدر للحـاضرة قوة كونها عاصمة الامبراطورية الاسلامية الضخمة أن تصـــبح محط أنظار العالم في الثقافة والادب ومقصد العباقرة والموهوبين يفدون لها من بقاع العالم الاسلامى فظهر في عصر المنصـــور نخبة من الشعراء والفلاسفة والمؤرخين والرياضيين ورجال الدين ! (٢) ٠

بخـــل وعطـــاء :

وعلى الرغم من أن الخليفة العباسي قد اشتهر بصفة البخل حتى سمى بالدوانيقى كناية عن الحـــرص ٠ وكان يرد ذلك الى سياسة أمور الدولة على نحو دقيق ومع هـــذا كان يعطى وكان عطاؤه حزما ويمنع الحقير اليسير ما كان اعطاؤه تبعيا ! (٣) ٠

واما الحاكم فكان ينفق ما اســـتطاع ويجزل العطاء لرعيتـــه وأظهر العدل في ذلك ما لم يسمع بمثله ولعمرى أن أهل مملكتـــه لا يزالون في أيامه آمنين على أموالهم مطمئنين على نفوسهم ولم تمتد يد قط الى أخذ مال أخذ ، بل كان له جـــود عظيم وعطاياه جـــزية ! (٤) ٠

---

(١) صانعو التاريخ فليب حتى ص ١٥٨ ٠
(٢) فى قصور الخلفاء العباسيين أحمد شلبى ص ٧٥ ٠
(٣) ابن القوطى ص ٧٠ ٠
(٤) حضارة العرب ج ١ ادم ميتز ص ٢٠ ٠

ومع هذا التقارب في العطاء للرعايا الذى كان يتمتع به كل من المنصور والحاكم الا أن العديد من الباحثين يرون أن المنصور كان غاية في التقتير لغايات رآها فطبقها وقد أثبت له البعض أنه جماع للمال وبها أستحال الامر في المناظرة الى تمايز واختلاف بين الزعيمين العربيين ٠

الاعتماد على غير العرب في الادارة :

ويتفق الخليفة العباسي مع خليفة الفواطم في الاعتماد على غير العرب في الادارة فاذا كان الحاكم قد أقام على دولته في القضاء والولاية على الاقاليم والعمال والموظفين الاتراك والمغابة من الجندية وعلى الاتراك والسودان والديلم فان الخليفة العباسي استكثر الموالى من الخراسانيين وغيرهم من الموالى الذين استقدمهم من بلاد ما وراء النهر في أعمال البريد والشرطة والحسبة والولاية على الاقاليم والمنصور هو أول من استعمل الموالى واستقدمهم لخدمة الدولة وسمح المنصور لنفسه أن يعين الولايات العرب والموالى على السواء لانه كان يعنى باختيارهم عنايته بعد ذلك بمراقبتهم ومحاسبتهم ! (١) ٠

الجرأة وبعد الهمة :

ومن أخص صفات الحاكم التى تجدها قوية عند المنصور الجرأة وبعد الهمة والمكر والدهاء ٠ الجرأة في أنه يطوف وحده ليلا أو نهارا ٠ وكان يتميز بالثبات اذ كان يدعو الناس الى الجهاد ويخطب على المنابر ٠ وكان يسير في الفلوات والقرى دون أن يكون

---

(١) فى التاريخ العباسى شاكر مصطفى ص ١٣٠ ٠

حوالبه من الحرس من يفى بالدفاع عنه عند الخطر وكان كثيرالدهاء حتى استطاع أن يوطد دعائم دولته في صورة لم ينتظرها أحد من سياسي في سنه • فاستطاع أن يتغلب على خصومه السياسيين بأعمال الحيلة والدسائس عليهم • وهى نفس سياسة المنصور فكان داهية حازما يهتم بصغائر الامور اهتمامه بكبرائها وينظر الى أبعد مما هو فيه • رابط الجأش يقابل الاحداث بعزيمة ليس فيها خور ولا تخاذل فاذا عزم توكل مهما كانت الوسيلة وكيفما جاءت النتيجة • وكان شجاعا مهيبا فرجاحة العقل مع الذكاء في الرجل الخبير يولدان الدهاء وبعد النظر (١) •

وكان الحاكم يسوس أمر الرعية ويتفقد أحوالهم في جميع الاوقات • وكان يخطط للدولة ـ غالبا ـ في الليل لانه كان مغرما بالكلام ويتولى شئون المملكة بنفسه • وكان شديد الغضب وكان لا يميل الى اللهو واللعب وهى نفس الخلال التى يتحلى بها المنصور الذى كان شغله في صدر النهار بالامر والنهى والولايات والدول وأمن السبل والنظر في الحراج ومصلحة معاش الرعية لطرح حاجتهم والتكلف بسكنهم وهدوئهم فكان من أحسن الناس خلقا ما لم يخرج الى الناس فاذا لبث ثيابه تغير لونه وتربد وجهه واحمرت عيناه ولم ير المنصور في لهو قط ولا شيء يشبه اللهو واللعب والعبث • وكان جدا في بلاطه ووسط حاشيته ! (٢) •

مظلومان أمام التاريخ :

على أن الرجلين قد حفل تاريخهما بالظلم الواقع عليهما من المؤرخين • فان هؤلاء تناسوا ما قام به الزعيمان من تنظيمات

---

(١) الجومرد مرجع سابق ص ٢٢٢ •
(٢) محاضرات تاريخ الأمة الاسلامية محمد الخضرى ص ٨٥ •

وأعمال موفقة . فالحاكم في نظر المقدرين لجانب من سياسته هو ذلك الذى اكثر من اصدار الاحكام الغريبة المتناقضـــة وكان اقل الاهتمام بعرض المذنب الى عقوبة القتل وبمضي الزمن استحال هذا الشذوذ الى شغف حاد بسفك الدماء فقتل عددا كبيرا من كبـــراء الدولة من غير ما سبب وقد حكم البلاد ٢٥ سنة والمعروف أنه شغف بالوحدة والطواف بالليل وكان يقصد غالبا جبل المقطم ليجـــوب الفضاء الواسع طلبا للوحدة والتنسك (١) .

والمتصور في نظر المقدرين لهذه الجوانب التى أفرط فيها فهو في نظرهم مجتهد بجيب معاملته على هذا الاساس رغم ما يشـيعه الخصوم من تجسيم وارادة إذ لم تكن تصرفاته صادرة عن جهل ولا كانت ذلاته ناتجة عن رعونة ولكنه رجلا نه ميزاته واجتهاداته ولا ننسي أن لكل انسان عاقل جوانب متعددة تختلف باختلاف مراحل حياته . فكان طبيعيا أن تظهر أخباره متناقضة أحيانا مع بعضها، أما تاريخه السياسي مع الخصوم ونقمته الشديدة بهم وكثرة من قتل منهم وهذا صحيح في واقعه وأنصاره يجدون له في ذلك عـذرا ويلقون مخرجا بسبب الوضع السياسي الدقيق والمراحل الخطـــيرة التى اجتازها (٢) .

الميل لتتبع النجوم والطب :

على أن ما نراه متفقا مع ميول الزعيمين هو حبهما النجـــوم ورصد الكواكب وما قام به كلاهما من تقريب الاطبـــاء والعلماء في

---

(١) مختصر تاريخ العرب سيد أمير على ص ٥٠٢ .
(٢) الجوهرد ص ٢٢١ .

صناعتى الطب والفلك • وقد شغفا بالتطلع الى معرفة أخبـــار الرعايا وتسلطت الفكرة عليهما حتى كان المنصور لا يبنى المدن الا بعد أن يشير اليه المنجمون باشـــارات النجوم الى ذلك وكان الحاكم دائم التتبع والخروج ليلا لترصد حركات الكواكب فـــوق المقطم وقد أقام المرصد وامده بالآلات اللازمة وسعى بالرصد الحاكمى وقد استعان بخبرة ابن يونس وابن الهيثم • كمـا عنى المنصـور بهذا العلم فاستقدم العلماء من بلاد فارس وعمل باحكام النجـــوم فكان في حاشيته من المنجمين توبخت وولده أبو سـهل وابراهيم الفزارى وعلى بن عيسي والمنصور هو الذى امر ان ينقـــل كتـاب هرمس في حركات النجوم • وزاد اهتمام الناس بعلم الفلك وزادت رغبة المنصور فيه ففى مدة خلافته نقل أبو يحيى البطريق كتاب الاربع مقالات لبطليموس في صناعة احكام النجـــوم وكتب الفلك أرسل المنصور في طلبها من ملك الروم ! (١)

وقد زخر عصر الحاكم بالعديد من الاطباء كعلى بن رضـوان وأبى الفتح سهل بن مقشر الطبيب النصرانى وعلى بن ســليمان وعلى بإعقوب أسحاق بن ابراهيم • وقد اهتم المنصور بتقـــوية حركة الطب في مملكته وتقدمت المؤلفات العديدة في بغداد كما كان الحال في القاهرة والسبب في هذه النهضة الطبية في العصر المنصورى راجع الى ما أصاب معدته فانقطعت شهوته عن الطعام فاستقدم الاطباء من مراكز الطب المختلفة ليقوموا بعلاجه مثل جورجيس بن بختشيوع فجاء هذا الطبيب من جند يسابور فأصـــدقه وأبقـــاه في بغداد بعدما أرجعه الى مزاجه الطبيعى فأمده بثلاثة آلاف دينار وقربه من حاشيته وجعله من خدامه • وكان بختشيوع يقـــوم

---

(١) العلوم البحتة عمر كحالة ص ١٦٦ •

بتصفيف الكتب الطبية عن اليونانية والسريانية بعد ترجمتها وتحقيقها ! (٢) ٠

وهناك وجه شبه آخر في هذا المجال فكما عجز اطباء بغداد من تشخيص مرض المنصور والوقوف على اسباب علاجه مما ألم به من مرض الى ان الجأته الحاجة الى الالتفات لطبيب من جنديسابور ليعالجه وقد نجح في هذا كذلك عندما أصيب الحاكم بجرح نافذ في ساقه وظل مدة طويلة دون أن يبرأ رغم أن ابن دفشر وغيره من أطباء الخاص كانوا يبذلون الجهد في علاجه ثم أحضر له طبيب يهودى اسمه الحقير النافع فشفى الجرح في ثلاثة أيام فأنعم عليه الحاكم بألف دينار وخلع عليه وضمه الى أطباء الخاص ولقبه بهذا اللقب الذى شهر به الحقير النافع (١) ٠

سجل مخضب بالدماء :

وهناك تشابه كبير بين الخليفتين العباسي والفاطمى في أمر هذا السجل الدموى الحافل وغدرهمابرجالهما بعد اعطاء الامان والعهد بمقولة تدعيم وتوطيد أركان الملك فكثر البطش والتنكيل وتنوع الحاكم والمنصور ٠ من منطلق هذه السياسة الدموية ينبثق منها حالتان متشابهتان ٠ فقد نكل المنصور بأبى مسلم الخرسانى الذى كانت مواقفه وخدماته للدولة وللخليفة لا تنكر ويشبهه ما قام به الحاكم من الاطاحة ٠ فبرجوان الصقلبى مربيه ووصيه الذى قدم له خدمات جليلة ـ فقتل أبى مسلم وبرجوان الحاكم والمنصور المفاجىء للجند الخراسانية والتركية في بغداد والقاهرة جعل

---

(١) محالى الاسلام حيدر بامات ص ٧١ ٠

(٢) تاريخ مصر الاسلامية ج ١ جمال الدين الشيال ص ٧٣ ٠

الزعيمين يتصرفان بموقف متشابه تقريبا • فقد اعتقد الرجلان أن أبا مسلم قد احتالا في أمر الخلافة وقد استبدا بها حتى استفحل خطرهما • وقد تراكم لكل منهما سجل نفسي في قلب الحاكم والمنصور دفع بهما الى التعجيل بالخرسانى والصقلبى خشية زيادة تجرؤهما على الخلافة • فالاسباب الدافعة الى قتل أبى مسلم تتلخص في تهم وجهت اليه تباعا بعد أن عزم التابع على العودة الى بلاده بعد استفحال أمر النزاع مع المنصور وكانت التهم تتلخص في الآتى

١ ـ انه تقدم عليه في طريق الحج وعدم انتظاره •

٢ ـ انه قتل سليمان الخزاعى دون استشارة المنصور في أمره •

٣ ـ أخذه بعض المؤن والمتاع والحوائج مستخلصا اياها لنفسه •

٤ ـ مراوغته بأسلوب الدهاء والحيلة في أمر خروجه الى خراسان •

٥ ـ تقديم اسمه على اسم الخليفة في الرسائل والمكاتبات •

٦ ـ تدخله دون وجه حق في شئون الدولة دون الرجوع الى الخليفة •

٧ ـ غضبه عندما بعث الخليفة اليه من يحصل غنائمه وقد احتج قائلا : أؤتمن على الدماء ولا أؤتمن على الاموال ؟ (١) •

وقد تجمع الجند حول الخرسانى وقتلوه في قلب القصر أمام أنظار الخاصة بهذه النهاية المفجعة • وهو نفس المصير الذى لقيه

---

(١) ابن القوطى ج ١ ص ٢٨٢ •

برجوان بعد أن تجمع عليه الجند وأخذوا رأسه بعد طلعنه بالسكين في بستان منزله وكانت التهم الدافعة الى قتل الصقلبى انه :

١ ـ قصر عن الخدمة واشتغل بلذاته عن أداء الواجب ٠

٢ ـ استبداده بالامر والنظر دون الرجوع الى الخليفة في أمر الادارة والسياسة ٠

٣ ـ كان يحب الطرب واللهو بأن يجمع المغنين والمغنيات في منزله فيظهر وسطهم كواحد منهم ٠

٤ ـ كان سهره يبعث الناس على انتظاره الى نصف النهار فتتأخر الاعمال وتتعطل المصالح ٠

٥ ـ كان يسيء الادب مع الخليفة فقد صار يناديه بالوزغة ـ أى الحية الصغيرة ـ ولم يفق الا بعد أن أصبح تنينا كبيرا فقتله ٠

٦ ـ يعامل الخليفة على أنه صغير فلا يقوم حياله بالاحترام والتقدير الواجب ٠

٧ ـ وصل تجرؤه الى أن يخاطب الخليفة وهو راكب على فرسه ورجله على عنق الفرس وبطن خفه في مواجهة الخليفة ٠

٨ ـ وبلغ الحاكم أن برجوان يريد أن يجعل من نفسه موضع كافور الاخشيد ويجرى مجرى ابن الاخشيد في الحجر والاستبداد ! (١) ٠

وبعد أن قتل أبو الرفج برجوان وأبو مسلم الخرسانى شعاب الجند الخرسانية في بغداد والمشارقة في القاهرة وشهروا سيوفهم واجتمع القواد والزعماء هنا وهناك عقب سماعهم بمقتل الرجلين

---

(١) مجموعة الوثائق الفاطمية جمال الشيال ص ١٨ ٠

وأعطوا بالقصرين وعظم الامر وخاف الخليفتان الفاطمى والعباسي من فتنة تقوم من أثر هياج الجند وثورتهم • فقاما بفعل مناسب ترضية للنفوس المتألمة في خطبة سياسية تعدد أخطاء المقتولين وتهدد من يشيع الفتنة باستعمال الشدة معه • فعند الحاكم خرج اليهم خطيبا وشرع يقول لهم : ان برجوان عبدى استخدمته فنصح فأحسنت اليه ثم أشياء عملها فقتلته ، فألزموا الطاعة وحافظوا على ما في أعماقكم من الايمان أنتم تربية العزيز بالله ومقام الاولاد ولكل أحد عندى الا ما يؤثره ويجيبه • فكونوا على رسلكم وامضوا الى منازلكم وخذوا على أيدى سفهائكم ! (١) •

وأما المنصور فقد وقف وتصدى له طوائف الجنـــد الـذين اصطفاهم أبو مسلم ورغم أنه ابتدر المـال الا أن الجند المخلصين لم تنفع معهم هذه الحيلة • وانتقل الخليفة الى المدائن وخطب في حشودهم مبررا سبب مقتل الخرسانى : لا تخرجـــوا من أنس الطاعة الى وحشة المعصية ولا تسرفوا غش الائمة فانه لم يسر أحد قط منكر الا ظهرت في آثار يده أو فلتات لسانه وأبداها الله لامامه لاعزاز دينه • وانا لن نبخســكم حقوقكم ولن نبخس الدين حقه عليكم انه من نازعنا عروة هذا القميص أجززناه خبىء هـذا الغمد • وان أبا مسلم بايعنا وبايع الناس على أن من نكث بنا فقد استحل دمه ثم نكث الرجل بنا فحكمنا عليه حكمه على غيره لنا ولصالحنا عندما كان طائعا لنا ولم تمنعنا رعاية الحـق له الموفـور المعقور اياه من اقامة الحد عليه (٢) •

وهناك شيء آخر يدخل في نفس المضمون ـ سفك الدماء ـ

---

(١) الخطط ج ١ ص ٥٢ •
(٢) تاريخ الطبرى ج ٦ ص ١٣٦ ، ١٣٧ •

وهى الثورة المضادة الداخلية ويقوم بها خصم مناوىء يشتد خطره على الدولة القائمة فكان الخارجى العلوى محمد بن النفس الزكية الذى أصبح رمزا للمعارضة ضد الخليفة المنصور السنى وقد شكل الخصم خطرا كبيرا على الخلافة العباسية لانه جذب الكثير من الجماهير العلوية وغيرها في بعض الاقاليم ذات الاهواء الخاصة المعروفة بعدائها للعباسيين كذلك قابل الحاكم رجلا يدعى أبا ركوه من الامويين وقد أيدته القبائل من بنى قره ولوائه ومزاته وزناته واستفحل خطره ومن العجيب أن الحاكم شيعى والخارجى سنى وكان المنصور سنيا والمناوىء لحكمه شيعيا • وكانت طريقه التخلص من أمثال هؤلاء الخصوم الخطرين عند المنصور والحاكم معروفة في نطاق سفك الدماء !

دور التأسيس :

فكما كان الحاكم بما قام به من اصلاحات وتنظيمات وأعمال من المؤسسين للدولة الفاطمية كما كان المنصور مع غيره هو المؤسس لدولة بنى العباس بعد أن استطاع القضاء على الحركات المعارضة في الداخل ، وبدأ يتفرغ لحروبه الخارجية مع البيزنطيين وكانت تفصل بين الدولتين الاسلامية والبيزنطية منطقة تتناثر فيها مدن للدفاع وهى التى تسمى الثغور وكانت الحروب بينهما قد اتخذت صفة خاصة تختلف عما كان قبل ذلك وأصبحت غارات يقصد منها الهدم والتخريب دون هدف محدد (١) •

واذا تابعت تاريخ الحاكم ألفيته رجلا منظما لشئون الحياة المصرية وفي حالته الخاصة يتخذ من الدنيا نصيبه منها يبذل

---

(١) تاريخ الدولة العباسية جمال الشيال ص ٢١ •

للناس بالجود والهبات والخلع محسنا كما أحسن الله اليه مقبـــلا على الحياة كما أنه في بعض الاوقات متنزها يطيل شعر رأســـه ويلبس الصوف ولا يركب سوى الحمار يطوف به ليقف على أحوال رعيته عفيفا عن أموالهم وكان يخلو بنفسه الســـاعات الطـــوال للتعبد والتنسك في الخلاء والمغاور حتى لتظن أنه رجـــل آخره • فلمس ذلك في تاريخ المنصور الذى كان رجل دنيا ناجحا في دنيـــاه ويعمل على ان يكون رجل اخره والذى نعتقده ان هذين النقيضـــين ها اللذان أجدهما التوازن الناجح في حكمه ولو انفرد بأحدهما لفشل في ذلك لان حب الدنيا وحده يقود الحاكم الى الطغيان البشع كما أن حب الآخرة وحده لا يصلح لسياسة دولة كبرى كدولة أبى جعفـــر ولذهب السلطان في بده ! (١) •

العـــدو المشـــترك :

وكان عدوهما المشترك هو الامبراطورية البيزنطية على تتـــابع السنين واختلاف القياصرة فقد كان الحاكم ـ وتجـــده ملاحظ في تاريخ المنصور ـ يحاول ان يعمل على هدوء الاحوال بالداخـــل بأمنة الفتن بسرعة حتى لا تصل أخبارها الى أسماع العـــدو فيتخذها ذريعة للتدخل والحرب وقت تشتت القوى وتبدد العـــزائم وحتى تشغل الخليفتين عن عدوهما المشترك كانا دائما يقضيان على النزاع والثورات المضادة قبل ان يستفحل خطرها فتشغل الزعيمين عن الهدف الاكبر ـ باليقظة والاعداد لمواجهة هذا العدو المشترك ـ الامبراطور البيزنطى ودولته !

---

(١) الجومرد ص ٢٣٨ •

أوجه الخلاف بينهما :

واذا دققت النظر وجدت ان الحاكم يعتبر ابا جعفر عدوا لدودا لابائه وخصما لدولته في الحكم والشعار والمنافسة العلمية والسياسية والعمرانية والاقتصادية وغيرها • وكان هذا أول خلاف بينهما فالاول شيعى يتمذهب بالمذهب الاسماعيلى والاخر سنى يتمذهب بالمذهب السنى الذى عليه غالبية العالم الاسلامى • وليس هذا وجه الخلاف بين الزعيمين الشيعى والسنى ونلخص الخلاف في الاتى :

١ ـ فحينما اتخذ المنصور الشعار الاسود في اعلامه وبنوده وخلعه نجد أن الحاكم ـ كما كان اسلافه ـ اتخذ اللون الابيض المضاد له في الرايات والطرز والخلع والاثواب التى كانت تعطى لارباب المناصب في الدولة • وقد تمادى البعض من العلماء والطلاب في لبس الاثواب الناصعة البياض ويتخذونها كذلك مداهنة للخليفة وكانت جدران المساجد اما بيضاء او خضراء • وفي حالة تعدد الالوان لابد ان تكون اللون الاسود شعار الخصوم العباسيين •

٢ ـ موقف الحاكم من المرأة كان فيه الكثير من الشدة عليها وقد انزمها بالعديد من الاجراءات الزاجرة اذا المتصور فقد تمتعت النساء في « عهده بالحرية التى منحها أياها الشرع الاسلامى ولكنها لم تستطع ان تلعب الدور الحقيقى في شئون الدولة اثناء حكمه فضمن اعتقادات المغور بان تدخل النسوة في الشئون العامة للدولة ينتهى بها الى التفكك والانهيار والانحلال » (١)

---

(١) تاريخ الدولة العباسية الشمال ص ٢٣٠ •

٣ ـ وقد رأى الخليفة الحاكم امر الاسطول وتزويده بالمعدات اللازمة والرجال المدربين ليحارب بها عدوه البيزنطى وقت الحـــاجة فكان يقف بنفسه على انشاء الاسطول في دمياط ورشيد والاسكندرية والمقس وغيرها اما ما يشغل الخليفة العباسي فكان عبارة عن تقوية الثغور واستحكاماتها في مواجهة العدو البيزنطى ، « فكان يقسـم الجند المرابطين الى جماعات صغيره كل جماعه تتـألف من عشرة من المقاتلين ويبنى لهم البيوت ودبر السلاح واقطع الجنـد المزارع ويبدو ان جهود المنصور في التنظيم امتدت الى كل ناحية فضلا عن تحصينه مناطق الثغور ففى عهده نظمت الشواتى واصوائف » (١)

٤ـ وقد ولد المنصور من ام بربرية تدعى سلامه ولكنه تربى وسط كبار الرجال من جلة بنى هاشم وصحب اباه وجده فنشأ فصيحا ملما بسير الملوك والامراء ، أما الحاكم فقد ولد من أم عربية وهى المسماه العزيزيه تركه والده وهو في الحادية عشرة ـ كمـا قلنـا ـ فتربى في احضان القصر بين رعاية وصية برجوان وتحت اشراف اخته ومتابعة القاضي محمد بن النعمان ٠

٥ـ وكان الحاكم قد تميز بأنه ترك المظاهر الخادعة في المواكب والمشاهد في المواسم والمناسبات المختلفة وقد كان يدفعـه الى ذلك شغف حقيقى الى التبسط فكان يرتدى الملابس المتواضعة ويرتدى دراعه من صوف وترك الخيول المسومه ٠ اما المنصـور فكـان على النقيض من ذلك ففى داخل بيته « كان يميل الى التواضع فـيراه اهله وعليه دراعه وقوعه والجبه فيعجبون لذلك فاذا خرج من عتبه منزله ظهر بابهه الملك وعظمة كبار السلاطين متخذا مجلسه في قاعة الفبة وهو على سرير مرصع بالذهب وحوله الخدم والسلاح والحرس وكانت

---

(١) العالم الاسلامى فى العصر العباسى حسن محمود ص ١٥٧ ٠

له عنايته الخاصة بموكبه التى يخرج بها وعليه اللامه الحربية التى تظهر قوة السلطان وعظمة الخلافة (١) ٠

٦ ـ وتختلف الصفات بين الخليفتين فالمنصور اسمر رقيق السمره نحيف طويل القامة موفور اللحيـة معـروق الوجه خفيـف العارضين رحب الجبهة اقنى الانف بين القنى ادعج العينان يخالطه أبهه الملك بزى النساك فتقبله القلوب وتتبعه العيون يعرف الشر في تواضعه والعنف في صورته واللب في مشيته وخطه الشيب في سـن مبكره لطول ما عرك من الاحداث وفي صوته بح لذيذ يحف شـــاربه ويطيل ذقنه ويتطيب في مجلسه (٢) ٠

أما الحاكم بأمر لله فكانت عيناه زرقاوتين وكان صـوته أجش سريع التحرك بين الرعية وكان مهيب الطلعه كانه الاسد الضارى فكانت الجبابرة ترتعد من هول شخصيته فكان في الواقع سليل نسل من الجبابرة الصحراويين الاقوياء الذين يذهبـون في زهـرة العمـر والصحة ٠ عريض المنكبين قوى التكوين يواصل الركوب ليلا ونهارا وهو يركب منفردا تاره وفي الموكب اخرى وفي المدينة طورا وفي البريه آونة والناس كافة على غاية الهيبة له والخـوف منه فكـان لا يبقى على من صغر زلته وقل فضلا عمن كثر جرمه وجل (٣) ٠

وتهديه الى الطريق الاقوم في سياسة الناس « فكان يوصـيه بالمال والسلطان وقال له انى سائر وانى غير راجع ٠ وهذا كتـــاب وصيتى فاذا بلغك انى مت فانظر فيه وعلى دين احب ان توفيـــه

(١ الجومرد ص ٧٠ ٠
(٢) خلاصة الذهب المسبوك ٠ عبد الرحمن أبى سنيط ص ٧٠ ٠
(٣) الحاكم وأسرار الدعوة عنان ص ٨٤ ٠

ولست استحلها من بيت مال المسلمين • وافتتح عملك بصلة الارحام واياك والتبذير • وكان له سفط فيه دفاتر علمه وعليه قفل وكان لايأمن علىّ فتحه احدا فقال له انظر هذا السفط فاحتفظ به فان فيه علم ابائك وانظر هذه الهديه اياك أن تستبدل بها قد جمعت لك فيها من الاموال ما لم يجمعه خليفه من قبل ان أحبس عنك الخراج عشر سنين كان عندك كفايه ارزاق الجند والنفقات • واياك ان تدخل النساء في مشورتك وامرك وهذا آخر كلامى بالوصية اليك » (١)

غير ان الظاهر بن الحاكم لم يجد من والده العناية نفسها التى وجدها المهدى والده بل أبعده عن ولاية العهد • فالفرق بين سياسة المهدى المجرب والظاهر الذى حرم المهارة السياسية كالفارق بين الجندى الذى يملك السلاح الذى يكفل له تحقيق الانتصار وجندى آخر قد تجرد من اسلحته مطلقا •

٨ ـ وكان نقش خاتم المنصور مرتبطا بالايمان « عبد الله وبه يؤمن » • ونقش الحاكم يدل على الانتصار « بنصر الله العظيم الولى ينتصر الامام ابو على » •

د/ محمود شرف الدين
مدرس التاريخ الاسلامى بالكلية

(١) خلاصة الذهب ص ٨٩ •